القلاع والحصون في سورية

(٣) قلعة بحر صاف وما يجاورها

اسم القرية وموقعها

كان الفينيقيون قد بنوا معابد كثيرة على مشارف الجبال ولاسيما ما كان منها يشرف على الجروم (البراحل) ولن تزال آثارها ماثلة او مذكورة في التواريخ الى يومنا

ومنها هيكل قديم على اسم (بعل رَصَف او رِشيف) . (فالبعل) متى اطلق عندهم كان الاله الاعظم او الشمس و(رَصَف) اسم اله فينيقي وآرامي للانواء والصاعقة ومن شاراته البرق

وقد اكتشفت كتابة في لياسول من جزيرة قبرص بلغتين فينيقية فيونانية ورد فيها اسم الاله (رِشيف) في الفينيقية وابولون باليونانية مما يدل على وحدة الالهين الذين يرجح ايضاً ان ثالثهما هو رَشُون او رمّان الاشوري والبابلي فهو مثل رصف الفينيقي وابولون اليوناني ومن الغريب ان يكون الى يسار بعل رَصَف قرية (برمّانا) التي يرجّح انها (بيت رمّون) والى اليمين (بلّونه) في كسروان التي يرجح انها كانت (بيت ابولّون) فتكون الآلهة الثلاثة المتوحدة في عبادة الامم الثلاثة في بقعة واحدة بين قضائي المتن وكسروان ولقد كتب الدكتور يوسف اوفرد مقالة في وحدتها ثلاثتها في مجلة المشرق (٨ : ١٤)

فمن كل هذا نستنتج ولعلنا غير مخطئين ان قرية بحر صاف الواقعة في قضاء المتن اليوم هي باسم الاله رَصَف اي اله الصواعق ويكثر انقضاض الصواعق عليها الى عهدنا كما جرى ذلك مراراً

فاذا شئنا تحليل كلمة (بحر صاف) هذه نرى انها مركبة أما من (بيت الاله رَصَف) او من (بيت البعل رصف) او من (بيره رصف) اي قصر رصف بالفينيقية او من (بيت حَرْس رَصَف) او حَرْس عند الفينيقيين من اسماء الشمس وهو اله الحرب كالمريخ . وفي كل هذه الصور لا تخلو الكلمة من تحريف وابدال

بالحروف أوصلها الى صورتها الحالية (بحرّ صاف) كما تلفظها العامة منحوتة من تلك الالفاظ

ولا يخفى ان البعل كانت عبادتهُ شائعة عند الفينيقيين فمعت جميع مستعمراتهم وهناك على مقربة من هذه القرية (بعل شميه) و (بعد مرقد) التي هي اليوم باسم (بيت مري) او دير القلعة وغيرها

وتوهم بعضهم ان القرية سميت بهذا الاسم لانها تشرف على البحر الروي الصافي فقيل فيها (بحرٌ صافٍ) وذلك من التخرصات الباطلة

اما موقع هذه القرية فهو في مديرية القاطع من اعمال المتن في لبنان الى غربي بكفيا القصبة المعروفة تعلو عن سطح البحر اكثر من الف متر وتشرف عليه وهي قمة قرن من سلسلة جبلية يبتدىء اسفلها امام مغارة جعيتا حيث ينفصل عن كسروان بوادٍ سحيق ينبجس من منعطفهِ المتجه الى كسروان نهر الكلب الذي جرّت مياههُ الى مدينة بيروت وتصعد تلك السلسلة القرنية توًّا من قرية الفريكة في القاطع الى دير مار جرجس الجردق فعين انطلق الى درجة بحر صاف الشهيرة التي هي المعبر الوحيد الى القاطع وصرود المتن وكسروان فكانها اشبه بدربند نهر الكلب على الساحل البحري الذي كان مضيقاً شاقّ العبور ولاسيما في الحصار والحرب . وفيها الآن دير باسم القديس يوسف وميتم انشأه الخوري متصور عوّاد في زمن الحرب

ولعلّ (بحر صاف) كانت مأوى للصوص الذين يقطعون السبل على المارّة في العصور القديمة كما ذكر اسطرابون المؤرخ وغيرهُ انهم اعتصموا في اعالي لبنان مثل صنّين[1] وبوروما[2] وقطنوا الكهوف المشرفة على البحر والجروم البحرية مثل البترون[3] وجيفرتا[4] ونقل ذلك المؤرخ الاب هنري لامنس اليسوعي في كتابهِ (تسريح الابصار) وغيره

ولقد كانت هذه القرية من قطيعة كسروان الذي كان يمتد الى نهر الجماني

(١) في جهات جبل صنين التي ارجح ان اسمها من (سين) القمر و(نين) ابن البعل

(٢) يوجد محل (رومية) قرب برمانا يشرف على البحر واما كان ملجأهم درمان الله من ذكره

(٣) معروفة على شاطىء البحر

(٤) جيفرتا يناسب اسمها زفرتا ولكنه لا يناسب موقعها ويظن انها كانت في ضواحي البترون

فبعد ان تكل القيسيون باليمنيين في موقعة عين داره سنة ١٧١٢ م سلخت عن كسروان والحقت بالمتن من حدود بسكنتا ونهر بقعاته وكفريته وزبوغ في وادي الصليب تحت مزرعة كفر ذبيان وصارت من قطائع الامراء اللمعيين الذين ابلوا بلاء حسناً في تلك المواقع الدامية واستعمروا هذه البقعة

وكان سكان لبنان القدماء قليلين في غابه لكثرة اشجاره وحيواناته الضارية ولقلة موارد الارتزاق فيه فاتخذهُ اللصوص مأوى لهم ولاسيما في عهد الايطوريين الى ان كان الفتح الروماني فاخذوا يقطنون تلك الجاهل ويحتطبون من غاباتها ويحاربون رعاعها فحوّلت هياكل الفينيقيين وحصونهم الى معابد وثنية فسيحية على اثر تقصّر ملوك الرومان واليونان وبدأ عمران صروده يتسع نطاقاً منذ القرن السادس للميلاد . فاتخذت تلك المعابد مصايف لنجود والاعيان وكان هذا المعبد البديع الموقع الناذر المناظر الرائعة احد تلك المصايف

قلعة بحر صاف

كان موقع قلعة بحر صاف في الدرجة العالية تحت دير القديس يوسف فيها. وفي على شرفة رائعة المشاهد جيدة الهواء . حوّلت من المعبد الى الحصن على عادة تلك الايام فيرى المرتقي فيها البحر امامها وبيروت على يسارها وكسروان على يمينها وجبل صنين وراءها ولم تكن هذه القلعة وحدها هناك في ذلك المضيق الذي هو مفتاح تلك البقعة بل يرى القلاع مرصوفة من دير مار يوسف الى القلعة والابنية تتصل بقرية (بحنس) . وهناك محلة الحرين في بحر صاف ومزرعة العطشانة من بيت شباب ذات آثار متصلة ببحر صاف والقنيطرة مزرعة قرب خرائب القرية تتصل ببيت شباب وتمتد تلك الخرائب من بحر صاف الى قرية الفريكة وآثارها متصل بعضها ببعض

وهناك آثار فينيقية ويونانية ورومانية ومسيحية وصليبية من مسكوكات واعلام طرق وانصاب ونواويس واضرحة منحوتة في الصخور . وكلها تدل على موقعها الحربي المنيع

وموقع الحصن اليوم يسمّى (قلعة برجيس) وهو المشتري عند العرب والبعل عند غيرهم فلعلها حوّلت من عبادة (رصف) الى المشتري بزمن الرومانيين الذين

شاعت بينهم عبادتهُ . والباقي منهُ الآن عرقان او صفّان من الحجارة الضخمة وقربهُ بئر بيرةٌ عميقة قديمة . وحولهُ قبور معظمها وثنيٌ ونواويس كثيرة يظهر فيها حجارة كريمة وادوات وآثار وينبوع يسمّى (عين الحية) و(عين القبو) وكانت مياههما مجرورة الى القلعة . وهناك آثار خزفية وحجر عليهِ كتابة مجهولة يرجح انهُ كان علَماً للطريق . وتحت دير مار يوسف اثر رقبة جمل محفورة على الصخر واثر خفهِ ايضاً ومحل صندوقة تسمّى (المحلات) وقربهُ اخربة كثيرة . وقلاع متراصفة

تاريخ القلعة

واول ما وقفنا عليهِ في التواريخ الموجودة في ايدينا مما يدل على هذه القلعة ما جاء تاريخ في البطريرك اسطفان الدويهي انهُ في سنة ٧١٥ م بنى المردة حصناً فوق نهر الكلب والقلعة الحجرية في انطلياس والحصن المشهور في درجة بحر صاف مما يدلُّ على انهُ كان خرباً ولعلَّ الزلزلة التي قوّضت اركان بيروت وضواحيها سنة ٥٥١ م في التاسع من شهر تموز كانت قد دكّت هذا الميكل فتركتهُ قاعاً صفصفاً مثل كثير غيره من الهياكل والحصون

ولما استفحل العداء بين الروم والمردة واتصلت ثرارتهُ بالامراء الارسلانيين والمردة حصن كل من الفريقين مقاطعاتهِ فكان حصن سن الفيل[٥] للارسلانيين وهذه الحصون وغيرها للمردة وسنة ٧٥٨ م حدثت بينهم موقعة انطلياس فقتل فيها من الفريقين اكثر من ثلاثمائة رجل وانتصر الارسلانيون وابعدوا المردة عن السواحل وأمّنوا السبل

وسنة ٧٩٠ م استؤنف القتال بينهم في سن الفيل وحيث ثيران العراك خارج القرية فاستظهر الارسلانيون على المردة مهاجميهم وقتلوا كثيراً منهم واحرقوا بعض قرى كسروان السفلى وتقوّى الارسلانيون في السواحل

وسنة ٨٢٠ م جاء التنوخيون وعاضدوا الارسلانيين فحدثت مواقع بينهم وبين المردة ولاسيما سنة ٨٤٥ م و٨٧٥ م وبقيت المعارك تتجدد الى زمن الحروب

(٥) لعلها من (سن) فر و(بيل) البابلية بمعنى ابي الالهة غيرت الى سن الفيل وهكذا ميكلا قديما

الصليبية سنة ١٠٩٩ م فتقوى المردة بالصليبيين وبالاً وهم على قتال الامراء اللبنانيين وذكر ذلك كثير من المؤرخين كالسمعاني وابن القلاعي وابن سباط وابن الحريري والعنطوريني وغيرهم الى سنة ١٣٠٧ اذ دمرت كسروان واقيم الدرك ليفصل بين الافرنج واللبنانيين الوطنيين وعقب ذلك الفتح العثماني . فدمّر الحصن البحر صافي في تضاعيف تلك السنين مع الحصون التي في جواره

ومن حصون المردة في تلك الجهات مغارة (تيبيه)[٦] قرب مغارة البلاّنة فوق الظلياس حيث حدثت هناك معارك عظيمة

ومن حصون الامراء الارسلانيين والتنوخيين برج حمّود وحصن سنّ الفيل[٧] وهي اماكن قديمة كانت ملاجىء للانسان في العصور الغابرة وفيها مغاور ومدافن وادوات ظرانية ومنذ بضع عشرة سنة ظهرت آثار فينيقية في برج حمّود . وكلها الآن اطلال دارسة

الختام

هذه كلمة مختصرة في حصن بحر صافي وما يجاورهُ وكلها محولة عن هياكل آلهة قديمة لا تزال آثارها في تسمياتها وبتحليل الاسماء فوائد تاريخية تنمّ عن العبادات والامم التي اتخذتها وتحقق الآراء المضطربة الضعيفة

اما قرية بحرصاف هذه فتتبعها ساقية المسك وفيها نشأت أُسر مشهورة مثل المشايخ بني بليبل وبني الجلخ وبني عوّاد الذين منهم صديقي العلامة الاب انستاس الكرملي في بغداد ويعرفون هناك باسم بني الماريني . وغصوب وابي رحّال والحاج بطرس وشبلي وغلب . وفي ساقية المسك بنو شرابية وقربها بكفيّا والحيدثة وبيت شبات والقرى الكثيرة التي نشأ منها علماء وادباء معروفون في الوطن والمهجر ولاسيما في القطر المصري . والله يتولى الوطن وابناءهُ بعنايتهِ ورافتهِ انهُ السميع المجيب

عيسى اسكندر المعلوف

---

(٦) لعلها كانت هيكلا للآلهة الاشورية (نيبيب) فقيل فيها (نيبيه) ثم قصرت فصارت (تيبيه (٧) راجع وصفها في مجلة المشرق ١٣ : ٣٣١ . ويظهر ان برج حمود نسب الى امير ارسلاني رممه او بناه